

أيضاً كان ربما من الأفضل أن نتعرض لموضوع هام قبل الدخول في تفاصيل القرن الخامس الميلادي - وهو موضوع مكانة كنيسة الإسكندرية في العالم المسيحي في غضون القرون الأربعة الأولى.

الإسكندرية - كمدينة - أنشأت في ٣٣٢ ق. م بواسطة الإسكندر الأكبر. حُكمت بواسطة أسرة البطالمة اليونانية - من بطليموس الكبير وحتى آخرهم الملكة كِلوباترة - ماتت ٣٠ ق. م - وهنا أنضمت مصر إلى الإمبراطورية الرومانية. الإسكندرية كانت مدينة ثقافية بمقام رفيع ، كانت منبع الثقافة الهيلينية وفي ذات الوقت كانت تعج بالعبادات الوثنية واليهودية والفارسية وغيرها ، بالإضافة إلى مكتبة الإسكندرية العريقة التي نشأت مع بداية عمران المدينة بفكرة من بطليموس الأول وراعى الفكرة من بعده جميع البطالمة الذين جلسوا على عرش الإسكندرية. جميع هذه العوامل جعلت الإسكندرية مدينة ثقافية حضارية من طراز راقى ورفيع.

كان هذا هو حال الإسكندرية حين جال فيها القديس مرقس لأول مرة في منتصف القرن المسيحي الأول - لذا أدرك على الفور أن مفتاح قلوب أهل المدينة هو المعرفة والعلم. لذلك أهتم قبل إستشهاده بتأسيس مدرسة الإسكندرية التي بدأت فعلاً في الظهور مع بداية القرن المسيحي الثاني وكانت بلا منازع المدرسة اللاهوتية الأولى على مستوى العالم المسيحي الناشئ. ولاشك في أن شهرة مدرء هذه المدرسة اللاهوتية أعطت مكانة أكبر لثقل وزن هذه المدرسة في العالم المسيحي. فبداية الشهرة كان الفيلسوف بنتيموس ومن بعده أكليمندس.

لا يستطيع أحد أن يُنكر فضل العلامة أوريجانوس - صاحب التفسير الرمزي للكتاب المقدس - في أنه كان من أوائل من إستخدم وطوع الدراسة والبحث العلمي في ترجمة النصوص العبرية للعهد القديم. ففي كتابه Hexapla أعطى عدة ترجمات للنصوص العبرية لمن يريد الدراسة والبحث ، وفي كتابات أخرى كان من أوائل من أعطى تعريفات محددة لإصطلاحات لاهوتية. لا يستطيع أحد أن يُنكر أخطاء أوريجانوس ولكن ما قدمه أوريجانوس لكنيسة الإسكندرية فاق الكثيرون في عصره فأعتبر أوريجانوس . قولاً وفعلاً وحقاً - أب علم اللاهوت.

وبعد أوريجانوس جاء آخرون مدرء لمدرسة الإسكندرية اللاهوتية حتى في أيام الإضطهاد الشديدة لم تتوقف المدرسة عن نشاطها إلا أيام قليلة أو بضعة شهور. وظهر نشاط هذه المدرسة وراثتها واضحاً جلياً حين وقف أحد خريجيها - الشماس أثناسيوس - في مجمع نيقية يحاور ويجادل أريوس الهرطوقي ويضحد تعاليمه الواحدة تلو الأخرى بل ويقدم للكنيسة الجامعة لأول مرة نصاً يحوي أيمان الكنيسة الأرثوذكسية (الجزء الأول والثاني من قانون الإيمان النيقوي) ويوافق عليه المجمع بأرشاد الروح القدس.

مواقف أيمانية أخرى خلال القرن الرابع.

كل هذا الكم من الكتابات والدراسات والتفسيرات على يد العديد من خريجي مدرسة الإسكندرية ومدبروها أعطى كنيسة الأسكندرية مكانة علمية قوية فاقت كنائس أخرى.

من ناحية أخرى قدمت كنيسة الإسكندرية مثلاً عملياً حياً للإيمان المسيحي – ليس فقط تراث أدبي وثقافي ولكن أنجيل حي مُعاش رآه العالم في كنيسة الإسكندرية وهي تقدم الألاف من أولادها على مذبح الإستشهاد. وهذا الأنجيل المُعاش في حياة الكنيسة هو الإستشهاد الذي بدأ ربما من يوم الإثنين الموافق ٨ مايو ٦٨ م. (ثاني يوم عيد القيامة)، عندما إستشهد قديسنا المُبشّر مار مرقس الرسول ، بعد جرّه الجنود الرومان من قدميه وجابوا به كل شوارع الإسكندرية. ولتأكيد محبة الكنيسة في الإستشهاد ، فقد إتخذ الأقباط تقويماً، يطلق عليه تقويم الشهداء، الذي يبدأ عهده يوم السبت الموافق ٢٩ أغسطس ٢٨٤ م، (ذات اليوم الذي تولى فيه دقلديانوس زمام الإمبراطورية) لإحياء ذكرى لشهداء الإيمان في عهد الإمبراطور الروماني دقلديانوس.

فكان هذا العدد الضخم من الشهداء – والمعترفون أيضاً – سبب قوي جعل مسيحيو العالم في ذاك الوقت ينظرون لكنيسة الإسكندرية نظرة احترام قوية فقد قدمت المعرفة المسيحية وقدمت أولادها أيضاً مثلاً حياً لهذه المعرفة.